الثّابت والمتغيّر في دراسة اللّهجات العربيّة

The costant and the changing in the study of Arabic dialects

أ.م.د . نهلة عبد الله خلف الوائليّ
جامعة واسط – كلية التربية للعلوم الإنسانية
nalwaili@uowasit.edu.iq

الخلاصة:

يُعنى هذا البحث ببيان ما سكت عنه دارسو اللهجات العربية المحدثون وهو الثابت والمتغير في هذا الجانب اللغوي ، وهو ما كان يسميه القدماء بـ(لغات القبائل) . وما نسميه اليوم بـ(لهجات المناطق) . بيّن البحث بالأدلة النقلية التّغير الذي طرأ على مصطلح (اللغة) وكيف تحولت إلى (لهجة) ، فضلا عمّا استنبطه المحدثون من أسباب لنشأة اللهجات العربية وبيان الثابت منها والمتغير ، ولاسيما أنها أسباب تدرس على وفقها اللهجات العربية القديمة والمعاصرة .

The Stable and the Changeable in the Study of Arabic Dialects

Prof. M. Dr. Nahla Abdullah Khalaf AL.Waeli
Wasit University– College of Education for Human science

This research is concerned with what the modern scholars of Arabic dialects did not talk about, which is the stable and the changeable in this aspect of linguistics, which was called in the past as the language of the tribes and is now called the dialect of the regions . The research clarified with the inherited evidences , the change that occurred on the term language and how it transformed to a dialect , in addition to what the modern scholars induce about the reasons of creating the

ancient and modern dialects are studied

.

Arabic dialects and indicating the stable and the changeable of them especially , it is considered as the reasons by which the

التمهيد:

تعدّ دراسة اللهجات مدخلا مهما لدراسة اللغة ـ أيّة لغة ـ في مجالاتها المختلفة (الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية) ، كما أن أية لهجة قديمة كانت أم حديثة يمكن عدّها (نوعا لغويا) بحسب الفهم الحديث (للغة) [١] هذا المصطلح الذي يصلح أن يكون لكل لغات العالم ؛ فاللهجة هي نوعية لغوية تختلف من بيئة إلى أخرى ، والمقصود بالبيئة هنا : (البيئة اللغوية) . وهذه (النوعية) يمكن استعمالها للدلالة على المظاهر اللغوية المختلفة " **كما نفعل عندما نتصور أن الموسيقى ظاهرة عامة ثم نميز ما بين نوعيات مختلفة من الموسيقى . وما يميز بين نوعية من اللغة ونوعية أخرى هي الوحدات اللغوية التي تتضمنها** "[٢] . واللغة العربية نوعا لغويا لبيئة أكبر فقد أنبنت قواعدها من نوعيات لغوية من بيئات أصغر هي لهجات العرب في ذاك الزمان ، حتى قيل في النحو العربي ـ مثلا ـ إنّه (نحو لهجات) حيث تضمنت قواعده إشارات كثيرة للهجات قبائل عربية أصيلة في شواهد من كلامهم (شعرا ونثرا) ، ولم يخل منها حتى كتاب الله العزيز الذي جاءت فيه لهجات لم تكن محلا يُستشهد بها النّحويون ، **كقوله تعالى: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) طه : ٦٢ ، وقوله تعالى : (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) الأنبياء : ٣** . وقد أطلقوا عليها لغة (أكلوني البراغيث) ، وهي مما كانت قليلة في كلام العرب وعند القبائل : (أزد شنوءة ، وبلحارث ، وطيء، وغيرها) ، إذ إنّ الفعل طلب فاعلين ، فضلا عن شذوذ ثان هو إنّه تذكير البراغيث خارج على قواميس العرب في كلامهم وكان عليهم القول: (أكلتني البراغيث) ، حيث يستعمل المؤنث لما لا يعقل ، قال سيبويه : " **واعلم أن من العرب من يقول: ضربوني قومُك، وضرباني أخواك، فشبّهوا هذا بالتاء التي يُظهرونها في قالت فُلانة، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع** علامةً كما جعلوا للمؤنّث، وهي قليلة.

قال الشاعر: وهو الفرزدقِ:

ولكنْ دِيافيٌّ أبوه وأمُّه ...

بحَورانَ يعصِرنَ السّليطَ أقاربُهْ

وأما قوله جلّ ثناؤه: " وأسَرّوا النّجوى الذين ظلموا " فإنما يجيء على البدل، وكأنه قال:

انطلقوا فقيل له: مَن ؟ فقال: بنو فلان. فقوله جلّ وعزّ: " وأسَرّوا النجوى الذين ظلموا " على هذا فيما زعم يونس." [٣] . وقد سماها بلغة أكلوني البراغيث كما في قوله : " وجعلوا النون مكسورة كحالها في الاسم، ولم يجعلوها حرف الإعراب إذ كانت متحركة لا تثبت في الجزم ولم يكونوا ليحذفوا الألف لأنها علامة الإضمار والتثنية في قول من قال: أكلوني البراغيث، وبمنزلة التاء في قلت وقالت، فأثبتوها في الرفع وحذفوها في الجزم كما حذفوا الحركة في الواحد" [٤] .

ولأننا بصدد إعادة قراءة ما تعاهدت عليه الكتب التي عنيت باللهجات العربية، فلا يمكننا تغافل ما تتركه (اللهجة) في الفصحى أو في اللغة العليا التي يتخاطب فيها علّية القوم من الشعراء والأدباء قديما وحديثا ، بيد أننا نسجل هنا تحفظنا على عدول اللغويين من تسمية (اللغة) إلى تسمية (اللهجة) ، إلا إذا أرادوا تمييز ما خرج منها على قواعد اللغة الأكبر التي أطلقوا عليها : (اللغة المشتركة) ، فقد كانوا يقولون : (لغة قريش ، ولغة هذيل ، ولغة كنانة ، ولغة ربيعة ...) . وكان أول كتاب وصل إلينا في هذا الباب : (كتاب اللغات في القرآن الكريم) لابن عباس (رض) برواية ابن حسنون المقرئ . ثم ألف تحت هذا المسمى (لغات القرآن) كل من :

- هشام الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) [٥]
- الفراء (٢٠٧ هـ) (٢٨) [٦]
- الأصمعي (ت ٢١٣ هـ) [٧]
- أبوزيد الانصاري (ت ٢١٥) [٨]
- الهيثم بن عدي :[٩]
- ابن دريد(ت٣٢١ هـ) [١٠] الذي قال : " ولَهِجْتُ بالشيء ألهَج لَهَجاً ولَهْجاً، إذا غُرِيتَ به، والمصدر اللَّهَج. ويقال: فلان صادق اللَّهْجَة. وألهجَ الرجلُ فهو مُلْهِج، إذا لَهِجَت فِصالُه بالرِّضاع، والفصيل لاهج. قال الشاعر:

رَعى بأرض الوسميِّ حتى كأنما ... يرى بِسَفَى البُهْمَى أخِلَّةَ مُلْهِجِ

يصف حمار وحش، قد أجِمَ الكلأ فهو يكرهه"[١١].

بل إن هذا التأليف وتسمية (لغة) استمرت إلى ما بعد (ابن دريد) ، فنجد مؤلفا باسم (لغات القرآن) أيضا لمحمد بن يحيى القطيعي (ت ٥٤٤هـ) كما ذكر ابن النديم [١٢] ، وأحمد بن علي بن محمد البيهقي (ت ٥٤٤ هـ) [١٣] . ويذكر د. أحمد علم الدين الجندي أنّه رأى نسخة في الخزانة التيمورية بعنوان : (لغات القرآن) لأبي حيان الأندلسي (٧٤٥ت هـ)[١٤] ، ورسالة أخرى لأبي حيان أيضا تحت عنوان : (رسالة غريب القرآن على لغات القبائل)[١٥].

من هذا يتبين لنا أن مصطلح (اللغة) ويعنى بها (اللهجة) بالمفهوم الحديث ظل مستعملا إلى القرن التاسع للهجرة وهو عصر ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) الذي له فصل عنوانه :

(لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها) [١٦]

ومما يدعم قولنا بأولية استعمال مصطلح (اللغة) على (اللهجة) ما جاء في أول معجم لغوي عند العرب ، حيث فسر (الخليل بن أحمد الفراهيدي) اللهجة بأنها اللغة التي يجبل عليها الإنسان وينشأ ، يقول: " واللّهجة: طَرَفْ اللّسان، ويُقالُ: جَرْس الكلام، ويُقال: فصيح اللَّهْجَة واللَّهَجة. وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادها، ونشأ عليها ورجلٌ مُلْهجٌ بكذا، أي: مُولَعٌ به، قال العجاج:

رأساً بتَهْضاضِ الرُّؤوسِ مُلْهِجا"[١٧]

ولو عدنا إلى الأصل اللغوي للهجة فإنه يقال : " لهج فلان بكذا وكذا ، أي أولع به"[١٨] ، وجاء في صحاح الجوهري : " واللغة : الصوت مثل الوغا ، ويقال أيضا لغي به يلغى لغا ، أي لهج به " [١٩]

وجريا مع الأغلب الشائع في الدرس اللغوي فإننا سنستعمل مصطلح (اللهجة، اللهجات) لأنّه متداول .

وإذا كان كل منهما (اللغة واللهجة) يدل على الآخر في الأصل فإننا نقرأ مما جاء في قول الخليل إن في (اللهج) كثرة وتداولا للمفردات على اللسان أكثر مما لو قلنا (لهجة) ، وهذا مما يقدح في لغة القدماء ، فمع عمومية اللغة وخصوصية اللهجة التي اتفق عليها القدماء و المحدثون ، إلا أن في هذا تناقضا بين الأصل اللغوي لـ (اللهجة) ، وبين ما قرروه من أنّ اللغة أصل واللهجة فرع منها ، إذ إنّ اللهجة دلالة على كثرة الاستعمال ، والأولى أن تكون اللغة هي العامة ، وكانوا قرروا أنّ اللغة المشتركة هي مجموع لغات القبائل كما مر . وبالجملة فإننا نؤكد هنا حقيقة مهمة وهي أنّ التطور المتسارع في النظريات اللغوية المختلفة يحتم على الباحثين إعادة النظر في كثير من الفرضيات التي وضعها علماء اللغة العربية القدماء في دراسة اللهجات ، وفي غيرها . على أنّ دراسة اللهجات الحديثة والمعاصرة تتطلب جهدا في إعادة قراءة ما جاد به تراثنا اللغوي على وفق المفاهيم الحديثة التي تؤكد ضرورة قبول الواقع اللغوي ومحاولة إيجاد علائق مشتركة بين القديم والحديث وركن ما لا يتسق مع ما وصلت إليه علوم اللغة ؛ لأنّ حرجا كبيرا ومنعا من أهل العربية في دراسة اللهجات المعاصرة يخشى الضرر الذي قد يصيب اللغة الأم ، أو خشية فسح مجال كان ضيقا بوجه الباحثين ومن ثم غزو مفردات هذه اللهجات اللغة الرسمية ، إذ ظهرت في وقت دعوات لاستعمال اللهجات الدارجة (العامية) في التخاطب الرسمي " ولقد أحدثت تلك الدعوات الضالة (...) شكا لدى بعض الفضلاء من الغيارى على العربية الفصحى ، خوفا من أن تكون دراسة اللهجات وجها آخر من وجوه محاربة

الفصحى التي روج لها بعض المستشرقين وغيرهم من أمثال (وليم ويلكوكس) وأضرابه من العرب المنفصلين عن التراث وأصحاب الإقليميات الضيقة "[٢٠] ، وهذا لن يكون كما قدمنا بوجود القرآن الكريم والنصوص المقدسة الأخرى ، فضلا عن الشعر العربي القديم الذي مازال يطرب الأذن العربية ويتغنى به محبو الفصاحة ، إذ إنّ " اللغوي يفحص اللغة ولكنه لا يتدخل في مسارها "[٢١] .

وقد أسقط البحث اللغوي في السنوات الأخيرة النظريات الغربية الحديثة على متون لغوية عربية قديمة وحديثة ، إلا أنّ المكتبة اللغوية ما زالت بحاجة إلى دراسات في اللهجات الحديثة ، إذ إنّ " معظم اللغات التي أجريت عليها أبحاث حديثة لغات أجنبية ، واللغة الانجليزية بوجه خاص ، كما أنّ معظم الأمثلة التوضيحية مأخوذة من تلك اللغات"[٢٢] .

والأمانة العلمية تحتم هنا ذكر بحث عنوانه مُشابه لما في بحثنا هذا بعنوان : (اللغة واللهجة بين الثابت والمتحول) للباحث عبد القادر سلامي ، الجزائر . والحق أنّ بحثنا هذا مختلف في التفاصيل ، حيث سلّط الضوء على ما ثبت وتغيّر في الدرس اللهجي الحديث إذا ما قُورن بالدرس القديم .

الثابت والمتغير

الثابت في اللغة مأخوذ من قولهم : " ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا فهو ثابِتٌ وثبِيتٌ وثبْتٌ"[٢٣] . (وثابِت) اسم فاعل من الفعل الثلاثي (ثَبَت) ، وجاء في لسان العرب: " ويقال ثَبَت فلانٌ في المكانِ يثبُتُ ثُبوتًا فهو ثابِتٌ إذا أقامَ بِه"[٢٤] ، أي إنّه يدل على البقاء على حال واحدة لا يتغير.

أمّا المتغيّر ، فهو المتحول من حال إلى أخرى ، جاء في القاموس المحيط: " وتغيّرَ عن حالِه : تحوّلَ . وغيّره : جعلَه غيرَ ما كان "[٢٥]

ويكاد المعنى الاصطلاحي للمفردتين (الثّابت والمتغيّر) لا يخرج عن المعنى اللغوي ، وهو قريب منهما ؛ فالثّابت هو (المستقرّ) الذي لا يتغيّر إلى حال أخرى ، وبعكسه يكون المتغيّر من حال إلى أخرى بفعل الزّمن أو عوارض أخَر.

الثابت والمتغير في دراسة الهجات العربية:

لعل الثّابت الأوّل هنا هو العلاقة بين اللغة واللهجة على فرضية أنّ اللغة هي الأم التي احتضنت لهجات العرب المختلفة بمفرداتها وبأساليبها ، فصارت لغة مشتركة أو (بيئة شاملة) ، يقول د. أبراهيم أنيس : " فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص ، فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات لكل منها ما يميزها ، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات

اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات " [٢٦]

أمّا المتّغير الأول فهو مصطلح (اللهجة) ؛ إذ شاع أولا مصطلح (اللغة) كما مرّ ، نقرأ في كتاب العين : "والمعصوبُ : الجائعُ في لغة هذيل الذي كادت أمعاؤُه تيْبس"[٢٦] ، وجاء أيضا : " وعبدٌ سبعٌ في لغة هذيل عبدٌ مترف"[٢٧] ، وجاء : "وإذا أهلته لما نزل به من سوء قلت : بُعدًا له ، كما قال : بعِدت ثمود . ونصبه فقال : بعدًا له ؛ لأنه جعله مصدرًا ولم يجعله اسمًا . وفي لغة تميم يرفعون ، وفي لغة أهل الحجاز أيضا" [٢٨] . وقال : " وكلمة شنعاء من لغة أهل الشحر " [٢٩] ، وجاء :" أفلطني ، في لغة تميم : بمعنى أفلتني ، وهي قبيحة" [٣٠]. وجاء في كتاب سيبويه : " كما أنّ ما كليس في لغة أهل الحجاز ما دامت في معناها" [٣١]، وجاء أيضا : " وتقول : إذ كان غد فأتي ... وإن شئت قلت : إذ كان غداً فأتي وهي لغة بني تميم" [٣٢] ، وجاء أيضا : " تقول سير عليه ذا صباح ، أخبرنا بذلك يونس عن العرب ، إلا أنه قد جاء في لغة لخثعم مفارقا لذات مرة وذات ليلة" [٣٣]، وجاء أيضا: " أما ما كانت عينه ولامه من موضع واحد فإذا تحركت اللام منه وهو فعل ألزموه الادغام وأسكنوا العين ، فهذا متلئب في لغة تميم وأهل الحجاز ، فإن أسكنت اللام فإن أهل الحجاز يجرونه على الأصل لأنّه لا يسكن حرفان"[٣٤]

وليس جديدا القول : إنّ مصطلح اللغة كان سائدا حين لم يكن مصطلح (اللهجة) معروفا شائعا بعد .

على أننا وجدنا مفردة (لهجة) في بيت شعر لم يعرف قائله أورده الخليل في العين ، يقول : " وأكذبُ من عرقوب يثرب لهجة

وأبينَ شؤما في الكواكب من زحل" [٣٥]

ولم ترد هذه المفردة (لهجة) لا في كتاب سيبويه ولا في المقتضب ولا في الأصول في النحو لابن السراج . وحتى ابن جني استعمل (اللغة) وهو يريد به ما سُمي فيما بعد باللهجة، إذ عقد بابا في موسوعته (الخصائص) بعنوان : (باب اختلاف اللغات وكلها حجة) الذي أكد فيه أهمية كل لغة في الاحتجاج ، يقول : " وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه " [٣٦] . يقول د. حسام النعيمي في هذا الباب : "وواضح من الباب أنه يمكن أن يحتج بأية لغة من لهجات العرب ، وكونها مما يحتج به يعني جواز استعمالها" [٣٧]

ولعل ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) أول من ذكر (اللهجة) بما يقرب من دلالتها اليوم ، يقول :" وقولهم : هو فصيح اللهجة ، واللهجة :

اللسان بما ينطق من الكلام ، وسميت لهجة لأن كلاّ يلهج بلغته وكلامه "[٣٨] .

وإذا انعمنا النظر في ما قاله (ابن فارس) في البيت الشعري الذي أورده الخليل فإن (اللهجة) في هذين الموضعين تعطي معنى الحديث لا أكثر .ومما يؤكد ما نذهب إليه بشأن ما أورده ابن فارس هو أنه استعمل (اللغة) في كتابه الصاحبي ، ولم يستعمل (اللهجة) [٣٩].

نستنتج مما مر أن مصطلح (اللهجة) وإن ورد في بيت شعر عند الخليل_إلا انه لم يستعمله ، بل استعمل مفردة (لغة) مع القبائل ، كما استعملها عندما يريد أن يبين البنى المختلفة وهو يشرح معناها كما في قوله : " والأكة لغة في العكة فورة الحر شديدة في القيظ"[٤٠]. وقوله : " والإوان شبه أزجٍ غير مشدود الوجه ، والإيوان لغة فيه"[٤١]. إلا أننا يمكننا القول : إنّ ابن فارس أول من ذكر (اللهجة) بديلاً عن (اللغة) التي كانت شائعة عند علماء العربية القدماء وهم كانوا يعنون بها (اللهجة) ، وحتى معاصرة (ابن جني) فقد كان يستعمل (اللغة) في موسوعته (الخصائص) كما مرّ، ثم شاع استعمال مصطلح (اللهجة) التي هي فرع من (اللغة) . على أننا نسجل هنا تحفظا آخر على ربط مصطلح (اللهجات) بما سمي في الدّرس اللغوي من ظواهر لغوية مستقبحة مثل (التلتلة ، والكشكشة، والعنعنة ، والوتم ، والاستنطاء ، والفحفحة ، والعجعجة ، واليجيجة وغيرها) ، فهذه ظواهر فردية أكثر منها جمعية ؛ إذ نقلت لنا مؤلفات القدماء شواهد مفردة أو يتيمة بما يدل على عدم شيوعها ، والأحرى تسميتها (ظاهرة) من ظواهر لهجة قبيلة ما ، فلهجة (بهراء) ليست (التلتلة) وحدها ، ولهجة تميم ليست (العنعنة) فقط ، ولهجة (سعد بن بكر ، والأزد وغيرهما من قبائل العرب) ليست (الاستنطاء) وحدها ، وهكذا في الظواهر الأخرى ؛ لأن اللهجة بحسب تعريف المحدثين : " مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة . وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهما يتوقف على قدرة الرابطة التي تربط هذه اللهجات. " [٤٢]

<u>الثابت والمتغير في أسباب نشوء اللهجات</u>

ذكر (اللهجيون) أسبابًا عدّة لنشأة اللهجات العربية ، ومن أهمها بحسب د. إبراهيم أنيس : [٤٣]

أ- الانعزال بين بيئات الشعب الواحد .

ب- الصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرات .

وقد فصل الدارسون المحدثون فيها ، وذكروا الأسباب ، وهي [٤٤]:

١- العزلة : وتكون بالعوارض الطبيعية ، ولاسيما في البيئات البدائية مثل : (الجبال ، والصحارى ، والأنهار) التي يصعب التواصل من ورائها ، ومن ثم يتحدث كل ناس بلغة قد تختلف عن لغة من جاورهم في بعض مفرداتها .

٢- طبقية اجتماعية : وهذا أحد الأسباب التي تؤدي إلى نشوء لهجات خاصة بمجتمع ما دون غيره ، فعلّية القوم والزعماء والأغنياء وساكني المناطق الأكثر غنًى لهم لغتهم التي يعتقدون أنّها مما يمتازون بها عن غيرهم .

٣- الاحتكاك اللغوي : وهو أن تتداخل لهجة ما بلهجة أخرى بسبب الاستعمار والهجرة ، والحروب وغيرها . إذ تنتقل الألفاظ من لهجة إلى أخرى بفعل هذا العامل المهم .

ونحن هنا نشكل على (فندريس) في قوله : " مهما كانت أهمية العوامل السياسية والاقتصادية فإن اللهجة أولاً وقبل كل شيء (كيان لغوي) ، وحتى حينما نحسب حساب الظروف الخارجية في تكوين اللهجات يبقى أن هذه الظروف تستند جوهريا إلى التطور الطبيعي لعناصر اللغة" [٤٥] وموطن الإشكال هو قوله: (كيان لغوي) ؛ إذ إنّ اللهجات بطبيعتها متغيره بمرور الزمن و ليست ثابتة بفعل عوامل عديدة ، منها انتقال بعض أفرادها إلى منطقه أخرى للدراسة أو السفر أو الواجب الوطني ؛ ومن ثم يأتي بألفاظ جديدة يدخلها في محيطه الاجتماعي وفي عائلته أولا ، ثم تنتقل إلى قبيلته وأبناء جيله . وإذا كانت اللهجات تدرس في السابق على أنها (لغة) قبائل ، فإنها اليوم تدرس (لغة) لمناطق ، نقول : (لهجة العراق ولهجة أهل مصر، و لهجة الشام ، ولهجة المغرب العربي ، ولهجة أهل الخليج العربي) . وحتى هذه اللهجات تتفرع إلى لهجات أخرى محلية . ويمكن الاعتذار إلى (فندريس) وغيره من اللغويين غير العرب المسلمين من أنهم يتحدثون عن لغات لم تحفظ ، إذ ماتت منها ألفاظ وأساليب وحييت فيها أخرى ، بخلاف لغتنا العربية التي بقيت محفوظة بـ(القرآن الكريم) الذي يتعبد به المسلمون (صباحا مساء) في صلواتهم اليومية ، وقد تعهد الباري - عز وجل - بحفظه كما في قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر : (٩)

وإذا ما أنعمنا النظر في أهم أسباب نشوء اللهجات سيتبين لنا أن بعضا منها ثابت وبعضا متغير، فالعزلة التي تحدث عنها المحدثون قبل (الثورة الصناعية) و(الثورة الإلكترونية) لم تعد قائمة . وهذا السبب متغير بتغير الزمن وامتداده ، إذ أصبح التواصل بين الشعوب المختلفة والمناطق المختلفة يسيرا لا تقف بوجههم عوائق ، لا

طبيعية : كالجبال والبحار، ولا حتى سياسية . فالتلفزيون كان كفيلا ـ قبل ثوره الانترنت ـ بأن يسمع الناس من أهل اللغة الواحدة أو من لغتين مختلفتين بحسب مستواهم التعليمي أقرانهم في المناطق الأخرى ويشاهدوا حياتهم الطبيعية اليومية ، أو(المصطنعة) كالأفلام والمسلسلات وغيرها من البرامج ، وبها يستطيعون فهم بعضهم بعضا . وقد تنتقل ألفاظ محببة عند المشاهدين إلى بيئة أخرى وتستقر لتحل محل ألفاظ من لهجة البيئة الأصل وهكذا دواليك . وهذا ما نستشعره نحن ، إذ أصبح بإمكاننا فهم اللهجة الشامية ، واللهجة المصرية ، ولهجة المغرب العربي ، ولهجة الخليج ،على الرغم من بعد المسافة وعدم التواصل المباشر . فضلاً عما دخل الحياة الاجتماعية في السنوات الأخيرة من التواصل (الإلكتروني) عبر برامجه وتطبيقاته المختلفة ، فنقرأ اللفظة أو نسمعها وقد تدخل لهجتنا . العزلة إذن سبب (متغير) وليس (ثابتا) على وفق هذا الواقع اللغوي الملموس .

أما (الاحتكاك اللغوي) فهو سبب (ثابت) قد لا يتغير ، ولنضرب مثلا بالسياحة دينية كانت أو غيرها ، إذ يحصل الاحتكاك والمخالطة اللغوية بين أفراد من ألسن مختلفة ، وقد كانت هذه الحالة في الزمن القديم كما هي اليوم واقعا ملموسا عند المتخصص بدراسة اللغة ، إذ " تأخذ طريقها من حيث يريد أهلها أو لا يريدون ، وترون أثرها في ما دخل معجم العربية القديم من ألفاظ دخيلة أو معربة ، حاول بعض علماء العربية استقصاءها وردّها إلى أصولها من لغات غير العرب"(٤٦).

ونحن نرى أن هذا السبب (الاحتكاك اللغوي) وإن كان فيه نوع من الثبات ، إلا أنه لا ينشئ (لهجة) مستقلة لا في السابق ولا في الحاضر ؛ فالمخالطة اللغوية تؤثر في المتلقي وفي الباث ، وكلٌّ يتأثر ويؤثر : حيث تنتقل ألفاظ من كلا اللهجتين إلى الأخرى ، من دون نشوء لهجة خاصة جديدة بها ، بل إنّ دخول ألفاظ محدودة قد يحل محل الألفاظ الموجودة أصلاً ، فإذا كان (الدليل السياحي) ـ مثلا ـ يتكلم مع (السواح) بلغتهم التي هي غير لغته ، فإنه سيعتاد على بعض من ألفاظهم وسينقلها إلى بيئته اللغوية من حيث لا يشعر . وبمرور الزمن قد تحل اللفظة الجديدة محل اللفظة القديمة وهكذا ، فالاحتكاك أو المخالطة اللغوية يغير بعضا من خصائص اللهجة ، ولا ينشئ واحدة جديدة غيرها.

أما الأسباب الطبقية الاجتماعية ، فهي مازالت قائمة كما كانت سابقا ، إذ يتحدث أبناء البيئة اللغوية الواحدة بلغة (لهجة) تختلف بعض خصائصها عن اللهجات الأخرى بحسب المهن ، وبحسب المناطق ، وبحسب المستوى المعاشي . إذ يميل

أصحاب المهن إلى استعمال ألفاظ وتراكيب تختص بعملهم في تسمية آلاتهم وفي أحاديثهم أيضا ، فالحدادون يستعملون الفاظا غير التي يستعملها النجارون وهكذا . وإذا كان ساكنو المناطق الفقيرة يميلون إلى استعمال (اللهجة) البسيطة في ألفاظها وفي تراكيبها ، فإنّ سكان المناطق (الغنية) التي يقطنها ذوو دخول مادية مالية ومستوى ثقافي عالٍ يميلون عادة إلى الترفع عن بسيط القول واللفظ المبتذل ، وقد تقترب (لهجتهم) من اللغة الرسمية (لغة الجرائد) . على أننا هنا نؤكد ما يمكن أن نسميه بالازدواج اللغوي ، إذ يتحدث أبناء هذه الطبقات في مناسبات معينة وأماكن بلهجة قد تختلف في بعض مفرداتها وفي بعض أساليبها عن (لهجتهم) الأصلية ليظهروا شيئا من مستواهم المعرفي والطبقي .

نتائج البحث

بعد رحلة في واقع لغوي كان أساسا في وضع علوم للغة العربية ، خلص البحث إلى الآتي :

. نثبت تحفظنا على عدول اللغويين من تسمية الواقع اللغوي من (اللهجات) إلى (اللغات) ، إذ استعمل الأولون مصطلح اللغة إلى عصر متأخر وصل إلى زمن ابن خلدون . فلم نجد ذكرا لمصطلح (اللهجة) بما عرفها به المحدثون لا في كتاب العين للخليل ، ولا في كتاب سيبويه ، ولا في خصائص ابن جني .

. اللهجة نوع لغوي في عرف المحدثين كما اللغة ، أي أن لكل منهما قواعد وضوابط، ولا تقل إحداهما شأنا عن الأخرى .

. ومن الثابت في دراسة اللهجات العربية هي العلاقة بين اللهجة وبين اللغة ، وهي علاقة الخاص بالعام .

. لعل المتغير الأبرز هو إنّ اللهجات القديمة تدرس لغات القبائل .أمّا اللهجات المعاصرة فإنّها تدرس لغات مناطق وبلدان.

. العزلة التي أقرّها اللهجيون من أنّها سبب رئيس في نشوء اللهجات هي متغيرة بزوال أسبابها فلا انقطاع بين البشر الناطقين باللغة الواحدة ولا حواجز تمنعهم من التواصل فيما بينهم بفعل التّقدم التقني الذي وصل إليه العالم .

. أمّا (الاحتكاك اللغوي) فهو ثابت لم يتغير، إذ بقيت مصاديقه بفعل زوال أسباب العزلة.

ومن الثابت ي دراسة اللهجات ايضا الأسباب الطبقية والاجتماعية التي تؤدي إلى نشوء لهجة خاصة بطبقة ما كأصحاب المهن والحرف أو فئة اجتماعية ذات مستوى ما ، إذ تختص كل طبقة وكل فئة بلهجة خاصة تميزها من غيرها .

الهوامش:

(١) ينظر : علم اللغة الاجتماعي : ٤٩ ـ ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) الكتاب : ٩٨/١

(٤) المصدر نفسه : ٣/١

(٥) الفهرست لابن النديم : ٥٩

(٦) ينظر : البحر المحيط : ١٩٣/٣

(٧) الفهرست : ٥٩

(٨) بغية الوعاة : ١٥٠، الفهرست : ٥٩

(٩) الفهرست: ٥٩

(١٠) الجمهرة : ٤٠٠/٢

(١١) المصدر نفسه : ٢٤٧/١

(١٢) الفهرست: (٥٩)

(١٣) بغية الوعاة :١٥١

(١٤) اللهجات العربية في التراث: ١٣٦/١

(١٥) اللهجات العربية في التراث :١ /١٣٧

(١٦) المقدمة : ٤

(١٧) كتاب العين : باب الهاء والعين والجيم معهما : ٢٥٤/١

(١٨) كتاب العين : باب الهاء والجيم واللام معهما: ٣٩٠/٣

(١٩) الصحاح : ١٤٤/٢

(٢٠) دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية : ١٥ .

(٢١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢٢) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ١٢ .

(٢٣) لقاموس المحيط : ١٣٧/١

(٢٤) ١٤٤/٢

(٢٥) ٤٨٠/١

(٢٦) باب العين والصاد والباء معهما ٧٢/١

(٢٧) العين: (سبع): ٨/١

(٢٨) العين: (عدم) :٩٧/١

(٢٩) العين: ١٢٧/١

(٣٠) العين(مطل) :١٠١/٢

(٣١) الكتاب :٢٦/١

(٣٢) المصدر نفسه : ٤٥/١

(٣٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٣٤) المصدر نفسه: ٤٤٠/١

(٣٥) العين :(عقرب): ١٤٩/١ و ٢٧٠/٢

(٣٦) الخصائص : ١٢/٢

(٣٧) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني : ٨٢ .

(٣٨) مقايس اللغة: (لهجة): ١٧٣/٥

(٣٩) ينظر : الصاحبي : ٣٢/٢٨ .

(٤٠) العين : ٧/١

(٤١) فوم ٢٠٦/٢

(٤٢) في اللهجات العربية : ١٥

(٤٣) ينظر : المصدر نفسه : ٢٠

(٤٤) ينظر : لهجة قبيلة أسد : ٣٣ـ٣٥ .

(٤٥) اللغة : ٣٢٧

(٤٦) لغتنا والحياة : ٣١

روافد البحث

القرآن الكريم

- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : د. نايف الخرما ، ط٢ ، عالم المعرفة ، الكويت ، أيلول ، ١٩٧٨ م .
- البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم : لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) ، تح : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٠هـ.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،تح: أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر.
- جمهرة اللغة : لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١هـ) ، تح: د. رمزي بلعبكي ، دار العلم ، بيروت ، لبنان .
- الخصائص : صنعة أبي الفتح عثمان بن جني ، تح : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .
- دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية : ت . م . جونسون : ترجمه وقدم له وعلق عليه : د. أحمد محمد الضبيب ، ط٢ ، الدار العربية للموسوعات ، لبنان ، ١٩٨٣ م .
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني : د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٠م .
- الصاحبي : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) ، تح : السيد أحمد صقر ، مطبعة ومكتبة دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي) ، د.ت .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : إسماعيل بن حماد الجوهري ، تح : أحمد عبد الغفور عطار ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م
- علم اللغة الاجتماعي : د.هدسون ، ترجمة : د. محمود عبدالغني عياد ، مراجعة : د.عبد الأمير الأعسم ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية (بغداد . العراق) ، ١٩٨٧م .

- الفهرست : لابن النديم ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ،(د.ت)
- في اللهجات العربية : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت .
- القاموس المحيط : مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي (٧٢٩هـ = ٨١٧م) ،ط٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . لبنان ، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م
- الكتاب(كتاب سيبويه) : لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠ هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، ط٣ ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م .
- كتاب العين : لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، تح : الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام . الجمهورية العراقية ، ١٩٨٠م .
- اللغة : ج. فندريس ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص ، دار الأنجلو المصرية ، القاهرة ،ط١، د.ت.
- لغتنا والحياة: د. عائشة عبد الرحمن ،بنت الشاطئ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢، (د.ت)
- اللهجات العربية في التراث: د. أحمد علم الدين الجندي ، الدار العربية للكتاب (ليبيا . تونس) ، ١٩٧٨م .
- لهجة قبيلة أسد : د. علي ناصر غالب ،دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، ط١، ١٩٨٩م.
- مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا (ت٣٩٥هـ) ،تح : عبد السَّلام محمد هَارُون ، اتحاد الكتاب العرب ، الطبعة : ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تح: عبدالله محمد الدرويش ، دار يعرب ، ط١، ٢٠٠٤م.